الغلز والسمندل

باسكال كينيار..
ظلال هاربة وعالم مزهر

علي بدر

كنت تعرفت على الكاتب الفرنسي باسكال كينيار قبل أعوام في ربيع الشعراء الذي تقيمه فرنسا كل عام في آذار، لم تثر انتباهي شخصيته الصامتة بشكل فج، ولا حركته البطيئة ولا وجهه الذي يشبه وجه المطرود من الجنة، وبقيت بعيدا تماما عن المنطقة التي كان يعمل بها كينيار وجاهلا في واقع الأمر بإنتاجه، حتى قرأت خبرا صغيرا عن تسلمه جائزة الغونكور عن كتابه الغريب "الظلال الهاربة الجزء الأول من المملكة الأخيرة"، ولم أسع للحصول على هذا الكتاب أو السؤال عنه مطلقا، غير إني وجدت نسخة منه بالمصادفة في مكتبة قريبة من جامعة طهران، فاشتريته وذهبت به إلى الفندق الذي كنت أقطن فيه، حاولت قراءته إلا إنني لم أستطع، لقد وجدته فجا ثقيلا، ولم استطع إنهاء الفصل الأول منه، وبدلا من ذلك أخذت أتسلى بصحف إنجليزية وفرنسية أخذتها من لوبي الفندق.

حين غادرت طهران وضعت الكتاب في جيب حقيبتي، غير إني نسيته هناك ولم أعثر عليه إلا بعد شهرين حينما ذهبت إلى تركيا للمشاركة في المهرجان التاريخي للاحتفال بنصر الدين خوجه، أو جحا كما نطلق عليه بالعربية، في صباح أحد الأيام كنت في أنطاليا قريبا من مدينة قونيا التي تضم قبر مولانا جلال الدين الرومي اكتشفت الكتاب في حقيبتي، ولأني لم اصطحب أي كتاب معي ذلك الوقت، أخذت أقرأ كتاب باسكال كينيار، وكانت مفاجأتي على أشدها حين وجدت شيئا آخر تماما، شيئا لم أشعر به في القراءة الأولى مطلقا، لقد اكتشفت فيه كتابا هائلا سحرني بلغته وأفكاره، فأنهيت قراءته بيوم واحد.

لقد جذبني هذا الكتاب نحوه بقوة لا لأن نصوصه تقع في منطقة وسطى بين النثر والشعر، حسب، إنما لأنها نصوص من الحكمة والفلسفة والرؤى والمشاعر والذكريات والقراءات التي تمتد من الإمبراطوريات الصينية إلى اليوم، لقد اكتشفت صوتا جديدا، صوتا متمردا، صوتا غريبا في نبرته، غير مألوف في إيقاعه، وقد سحرني بقوته التي كنت لاهيا عنها فيما مضى، أدهشني بلغة احتجاجه، بتفجره، بمفرداته ومعانيه الجديدة، أدهشني بلغة انشقاقه التي ترتكز على طرائق جديدة في المحاججة العقلية، لقد اكتشفت نصوصا وجدانية تأملية ساحرة، وكلاما تحرر نهائيا من كل تابو، إنه صراخ يقول ولا يقول، كلام بريء في جمله فتاك في معناه، عاجز عن أداء المعنى ومملوء بكل معنى، كلام يتفجر وجمل تحرق، كلام يهدر يفترس ويفتت، تيار جامح، انقراض وانبعاث. جمود وحركة، مسكون وفارغ، متناقض ومنطقي، معتم وصاف، رمل ومطر، طبيعة وكتاب، إيقاع مستمر وحركة متقطعة، تشريح وتطهير نزق. تبشير بالخروج والانشقاق، تكامل وتنازع، فذ باحث عن المعنى، ورديء بلا معنى، هجاء يقودك من عبث إلى عبث، من استلاب إلى استلاب. قلق عظيم مصنوع من أسئلة وجروح، مزيج من رؤى وفلسفات. حركة في العقل وفي الروح، حركة في الجسد والمخيلة. إنه انطواء هدام وعجز خارق.

توقفت .. نظرت إلى بنفسجتين تتفتحان على جذع قديم، إزهرار يواجه الربيع، حديقة صغيرة في المدينة، جذع أوسع من خصر فتاة تركية تتجول هناك، كانت الشجرة القديمة بلحائها الخشن المغطى بالأشنة تشبه الكلام القديم المنقوش على صفحات الكتاب، ما الذي تغير في؟ سألت نفسي..كيف قرأته في ما مضى؟ كيف رأيته؟ كيف كرهته؟ كيف نبذته؟ كيف سهوت عنه، هو الذي تغير أم أنا الذي تغيرت؟ هذه الحركة في الروح وفي البدن وفي المخيلة من المسؤول عنها؟

في طهران لم أستطع قراءة الكتاب، ولا النظر في صفحاته، وجه كينيار الباكي كلما تذكرته ينفرني من الكلام المنقوش على الصفحة البيضاء، ذكراه تزعجني، وطهران لم تكن محايدة معي على الإطلاق، شوارعها القديمة، أشجارها الضخمة المعمرة، دكاكين الحلاقين، الجوامع، محطة القطار الحجرية، صالة الفندق الذي كنت أقطن فيه، الشحاذون على الرصيف، النبرة المزعجة التي يواجهني بها الشرطة كانت تحرف ذهني نحو بوصلة أخرى، طهران مدينة غير محايدة بالمرة، لا لأنني لم أعثر على حاجي بابا الأصفهاني التي ابتدعتها العقلية الغربية في القرن الثامن عشر، إنما لأنني لا أحصل على الشعور ذاته حين أكون في دمشق أو في اسطنبول أو في قونيا.

جلست على الرصيف كي أقرأ أمام الميدان المعد كمسرح للطبيعة، حين امتدت الأغصان مظللة المكان، نهايات الأغصان تدلت بفعل ثقلها، وبنفسجة جديدة على جذع قديم تطلع ببطء، منفصلة عن الأشنة أسفلها..تجولت أمام الدكاكين المفتوحة والتي تعرض بضائعها، كان الكتاب بيدي، شجر الصنوبر المعمر الرائع هناك، الورد الذي يتفتح، جذع الشجرة المغطى بالأشنات، جمال المرأة التي اشتريت منها سندويشا وأناقتها، عدت لأجلس على الرصيف، قرب بركة صغيرة ساكنة، قرب المطاعم والمكتبات، على مقربة من سياج حديقة، فراشتان تدوران تحت الأشعة الناعمة، ترفرفان، وأنا أأكل الساندويش وأقرأ أسطرا من الكتاب، ثم أنظر إلى الحياة التي تمور بالقرب مني، هذا المعطى الألهي الجميل، هذا الكرم الباذخ، هذه السعادة ببساطتها العارية، ماذا يريد الإنسان أكثر من هذا؟

ما الذي أريده أكثر من هذا على الأرض، حكمة قديمة في كتاب: شجرة معمرة مغطى جذعها بالأشنة، ملابس ولا أكثر من عاديتها، دولار واحد في جيبي، وفي يدي سندويش يشعرني بالشبع والامتلاء، ما الذي نريده أكثر من هذا: حروب هوميرية في كل مكان، أطفال يقتلون، بشر يجوعون، ونحن مهددون بحروب الذين يحملون هوياتهم مثل سيوف ويبيدون ويغتصبون ويسلبون ويحرقون..نحن مهددون بوجوه الذين يحبرون الورق تحريضا على الموت والكراهية والقتل الجميل وهم لم يروا عن قرب جثة.

ما الذي نريد أكثر من هذا، أكثر من هذا المعطى البسيط كي نكتب عنه..حكمة قديمة في كتاب؟

أدونيس والأفكار المسبقة عن العنف في العراق

شاكر لعيبي

علينا أن نقول الآن أن ثلة قليلة من المثقفين العرب لم يتورطوا في الانسياق وراء خديعة النظام المزدوجة. الغالبية المطلقة من المثقفين والإعلاميين العرب كانت تتماهى مع خطاب فلكلوري شعبي لا علاقة له بالوعي الرصين. وعيٌ باطلٌ معممٌ يبحث عن بطلٍ متوهمٍ من طراز صدام حسين.

البعض القليل جداً منهم فحسب وانطلاقا من وعي منشق عن الهيجان الشعبي العارم الذي يتوهم الأوهام، كانوا يتخذون موقفاً لا يُضاهى. وهنا درس يمكن تعميمه والاستفادة منه بصدد وضعية الثقافة العربية ومَن يسود اليوم وما يسود فيها.

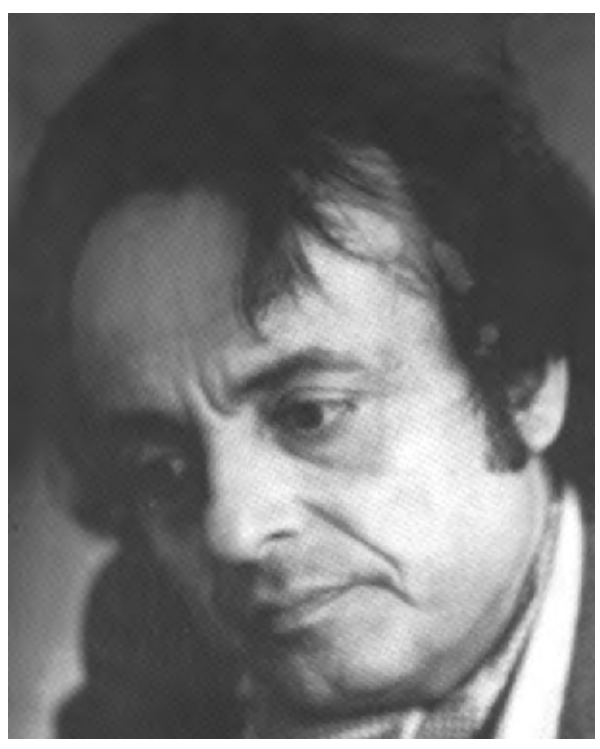

موقف تلك القلة لا يُقارن إلا بحرقة الوعي العميق المكتوي بنيران الحقيقة البسيطة المدوية في عراق صدام حسين. سأسمح لنفسي في هذه اللحظة الخاصة أن أكرر أن قلة من المثقفين العرب الكثر يستطيع أن يضاهي نفسه علي سبيل المثال لا الحصر بمواقف عباس بيضون وإلياس خوري، ثم نوري الجراح في أحيان صحو كثيرة إزاء العراق. لقد كتبوا بجرأة ويأس وحمية وحللوا خطابات وروايات عصابة القتلة في البلد وطالبوا برحيلهم. فعلوا ذلك بوقت مبكر وليس بعد تهادي المركب الظالم.

من بين هؤلاء الأدباء كذلك، ولكن ضمن طبقة أخرى، الشاعر أدونيس الذي لم يثق بشكل مستمر بترغيبات وطروحات ودعوات ونداءات النظام منذ أكثر من ثلاثين سنة. لقد كان من بين مفتحي العيون العرب الذين لم يضعوا العربة قبل الحصان ورأوا أن من قاد البلد إلى ما قاده إليه هو رئيسه في المقام الأول.

لو أنني تطرفت قليلا في القول لقلت إن مقالات بيضون كانت دائماً أكثر رصانة وهدوءاً من مقالاتنا المتوترة نحن العراقيين. لقد كنا نصرخ بصوت مبحوح مشروخ يائس. صوتنا لم يكن يُسمع بشكل واضح بسبب كثافته اللاغنائية ونبرته البكائية والكارثية والقيامية بينما كان بيضون وخوري قادرين على قول جرح العراق بطريقة حميمة ناظرين في مرآة الآخر. علاقتهما بالآخر تقول لنا أنهم كانوا ضميراً نادراً ومستترا للوعي العربي المأمول.

في الوعي العربي المقموع طويلاً والمسكوت عن هفواته، ثمة قناعات من طراز ثابت رفيع، من بينها تلك التي تقول أن هناك مصادر تاريخية وجينية تقريباً تبرهن على (دموية) و(قسوة) العراقيين. لقد نسبت فظاظة الحجاج إلي العراق وهو القادم حاكماً عليه من الشام بعد اليمامة، ولقد جرى تأويل المعارضات العراقية المتوالية لطغاة الأمويين والعباسيين والملكيين والصدّاميين، من أجل الحق والعدالة والمساواة، بصفتها تطرفاً وعنفاً وانشقاقاً وغلواً عقائدياً عراقياً، وهو تأويل ساذج يستجيب لدعايات ولاة الأمر السلطويين لا أكثر ولا أقل. لقد جرت نسبة الغلو في العقائد إلى العراق بشكل أخص. ولقد جرى النظر إلى الشيعة بصفتها أمة في داخل الأمة، مستثناة إلى يومنا هذا من التدريس في بعض معاهد تعليم الفقه الإسلامي في العالم العربي.

من الوجهة التاريخية جرى بالمقابل تناسي عصور العراق الذهبية، العراق ذي الروح المَرح، الذي ربما علّم العرب فنون الكتابة الطريفة والساخرة على يد الجاحظ، وتناسي الكثير من المثقفين العرب أدب الدعابة والطرافة والفتوة والخلاعة الذي تنطوي عليه الكثير من مصنفات الأدب التراثي العربي المكتوب في العراق منذ بابل وحتى سقوط بغداد العباسية. لنحرق إذن كتاب الأغاني التي تعلمنا عليها. ولننس شعر الإماء والجواري.

لن نتكلم عن روح التسامح النادر في هذه البقعة الرافدينية التي سمحت بتعايش فذ، ولو بصعوبات، بين الصابئة والآثوريين والكرد والأعراب والأرمن والتركمان والعرب.

سأسمح لنفسي باستعادة فقرة طويلة من نص للشاعر أدونيس منشور مؤخراً في جريدة (الحياة) يستعيد فكرة الغلو والقسوة والقتل لدى العراقيين: (لقد علّمتنا السلطة في العراق، منذ ١٩٥٨ ألا ننسى طغيانَ الحجاج، والطغيان العباسي، من حيث أن طغيانها كان امتداداً لهما، إن لم يكن أكثر هَوْلاً.

وهذا التعلم أوصلَ بعضنا، وأنا منهم، إلى الظنّ ان الشعب العراقي غير مُهيأ لأن يحكم نفسه إلاّ بالعنف والقتل. إلى الظنّ أن في كلّ عراقي يعيش شخصان: حرٌ وطاغية، الحسين والحجّاج. معاً، في الآن ذاته.

إلى الظن أنّ الماضي يتكرّر حقاً: تمتلئ شوارع المدن العراقية بالقتلى، بتهمة أنهم (أعداء الحرية)، كما كانت تمتلئ في الماضي، بحجة أنهم (أعداء الله).

إلى الظن ان دوامة العنف ستطرد: عنف الحاكم وعنف المحكوم معاً.

خصوصاً أن صورة هذا العُنف الدموي اللاإنساني، في أحداث ١٩٥٨ العراقية، وما بعدها حتي سقوط النظام الصدّامي، لا تزال ماثلة، وحية. تلك الصورة البشعة حتي حدود اللامعقول: باسم الحرية، والتقدم، والعدالة... إلخ، يُسحل الإنسان في الشارع، ويشوه جسمه، وتُقطع أعضاؤه.والكارثة الكبري الثقافية - الأخلاقية هي أن (ممثلي) الشعب العراقي كلهم، (قوميين) و(شيوعيين)، شاركوا في رسم هذه الصورة. ولم يحدث أي احتجاج على هذا الفعل، أو أي اعتذار، أو أي اعتراف بالخطأ. علي العكس، واصل بعضهم الزهو والفخر بهذه الصورة.كانوا جميعاً يقتلون شعبهم، حباً وتكريماً لهذا الشعب!). انتهي قول أدونيس حرفياً.

أقول قرأتُ هذا النص ملياً وأعدتُ قراءته، ولم أثق بقراءتي بسبب براعة أدونيس في إدخال الفعل (يظن). وقد قرأتُ النصَ لصديقين شاعرين، أصر أحدهما على أن أدونيس لا يتكلم سوى عن شبهة القسوة عند العراقيين ولا يؤيدها بينما جزم الآخر بأنه يتماهى مع هذه الشبهة ويؤكدها، وهو ما أذهب إليه. لو صحتْ قراءتي فإنني أشعر بالضيق من فكرته الأساسية، إذا لم أقل الخجل، وأتذكر بالمقابل ما شاهدناه من على الشاشات بعد سقوط وثن الطاغية لكن من دون موعظة تذكر:

إن تظاهرات الشيعة في كربلاء وخطب السنة في مرقد الأمام أبي حنيفة في بغداد وتصريحات ومواقف الأكراد وصلوات المسيحيين في الكنائس تبرهن على العكس من ذلك تماما، ناهيك بمواقف الآثوريين والكلدان والتركمان المسالمة للغاية.

نص أدونيس هذا أوصلَ بعضنا، وأنا منهم، إلى الظنّ أن أدونيس يخطئ مرتين: مرة عندما يستعيد الحكي الشائع السائد عند العوام عن قسوة العراقيين بصفته بداهة، ومرة عندما يستبق الأحداث العراقية التي لا تدعم تلك السذاجة السائدة في الوعي العربي المثقف.

وبالطبع فإن هناك خصوصيات محلية لا شك فيها لا تعود إلى أيٍ من تعميمات الثقافة العربية المستعجلة التي يغترف المغترفون منها.

إن رهافة الوعي في العراق وشفافيته وتوتّر الضمير وصدق الخطاب وحرارته، التي تقود كلها إلى اصطدامات من كل نوع، قد فُسرتْ دائماً بصفتها عنفاً، ولم تُفسر، ويا للغرابة، بصفتها نقيضاً لمداهنات خطاب المنتفع من الوضع أو التاجر الساعي إلى الربح ولم تُفهم كذلك بصفتها نقيضاً لوعي مسترخ يفضّل مستقبله الشخصي على مستقبل ثقافته الوطنية وهو يقفز مثل البهلوان علىn التناقضات ويتناسى البداهة والضرورة أو يلعب ببراعة عليهما.

ربما يكون الفارق بين وضعية العراق وجيرانه العرب أن العراقيين قد عارضوا بعنف ولم يداهنوا لأي سبب من الأسباب ممارسي العنف عليهم، وهو أمر رسّخ الصورة الفلكلورية عن العنف في العراق التي أظن أن نص الشاعر أدونيس يطلع منها. مفهومة (العنف) نفسها تحتاج إلى تحديد في الخطاب العربي السائد، مثل كل شيء.

إذا ما استذكرتْ كلمة أستاذنا الشاعر الكبير أدونيس الغوغاءَ النهّابين بعد سقوط الفاشي صدام حسين (والغوغاء كلمة أطلقها صدام حسين على مطلقي النار على صوره وأوثانه في انتفاضة سنة ١٩٩١)، فإن الأيام ستعلمنا أن من أحرق المكتبات ونهب المتحف الوطني هم زمرته وليس أحد سواها التي يرى القاصي والداني أن الغالبية المطلقة من العراقيين براء من عنفها وحرائقها.

الغالبية المطلقة من العراقيين كانت ضدها، والغالبية المطلقة تنتمي لفكر لمعتزلة وروح الحلاج والجاحظ.

قصيدتان لجلال الدين الرومي
ملاحظات مختصرة حول الديوان

ترجمة: عمار كاظم محمد

ديوان شمس تبريز قطعة نادرة من الحكمة والفصاحة . وغالبا ما يقال أن جلال الدين الرومي قد وصل إلى مرتبة الأستاذية في هذا الديوان وكان كثيرا ما يوغل في العوالم الروحية التي نادرا ما استكشفها الآخرون حيث أنه ارتقى إلى حيث لم يصل إلا القلائل من قبله أو منذ عصره.

في ديوان شمس تبريز يستعمل الرومي الكثير من الصور المأخوذة من عالمنا الدنيوي مثل النبيذ و الساقي، اللؤلؤ والمحيط، الشمس والقمر، الليل والنهار ، القافلة والحج ....الخ لكنه في كل ذلك يعبر عن حكمة روحية على أعلى مستوياتها عبر هذه الصور وبينما كان الشعراء الآخرون يمتلكون رؤية صوفية ومن ثم يحاولون شرحها من خلال لغة قابلة للإدراك ، فان جلال الدين لم يحاول أن يهبط برؤاه إلى المستوى الديني فحسب بل كان يحاول دائما أن يرتقي بمستوى القارئ إلى مجال أعلى فأعلى في مجال الفهم الروحي ومن ثم يكون قادرا على تقييم ما كان يقوله من خلال شعره وربما لهذا السبب نلاحظ أن هناك العديد من المستويات أو الطبقات في شعر جلال الدين وهي مستويات ليست ناتجة عما يكتب لكنها ناتجة عن مستوى فهمنا له وكلما ارتقينا في فهمنا لشعره فسوف ندرك أكثر فأكثر ما حاول أن ينقله لنا .

حاولت الترجمات نقل الحكمة الهائلة التي يحتويها شعر جلال الدين لكنها غالبا كانت تغفل الموسيقى والجمال الفني الذي تحتويه وخصوصا في ديوان شمس تبريز حيث يخلق الشاعر مستوى كهذا من خلال إجادته في استعمال الإيقاع والقافية الموسيقية والتي لا تجعل القارئ يقدر حكمته فحسب بل يصل إلى مستويات من النشوة والوجد الصوفي اللذين يندر وجوداهما في أي ترجمة لشعره وهي إحدى المشكلات المعروفة في الترجمة الأدبية من لغة إلى أخرى .

وفي كل الأحوال فالنتيجة النهائية هي نفسها ، تجربة فنية وجمالية، موسيقى عبقرية إيقاع وطاقة منتشية وكلها مرتبطة بفهم ذهني للحكمة التي يحملها شعره.

كل ذلك يجعل المرء أقرب ما يكون إلى التجربة الصوفية ذاتها دون أن يكون في الحقيقة هناك مع جلال الدين وبكلمة أخرى يتخلل حضوره شعره والقارئ لا يستطيع سوى أن يمس بهذا الحضور القوي والمحبوب.

إن الترجمات بعيدة عن خلق النشوة التي يخلقها شعر جلال الدين بلغته الأصلية لكننا نأمل في إنها تقود القارئ في الاتجاه نفسه من خلال استعماله خياله فربما يحصل على لمحة حول كيفية أن جلال الدين الرومي استطاع أن يتألق من خلال الوجد والتجربة الصوفية.

من ديوان شمس تبريز
جلال الدين الرومي
ترجمة: عمار كاظم محمد
(موسيقى خفية)

قلبي يجلس فقط ...
مع أولئك الذين يعرفونك ويفهمونك ...
يجلس فقط تحت الشجرة
المليئة بالأزهار المثمرة
في سوق الأعشاب والجرعات ....
لا تتجول بلا هدف
وجد المحل الذي يقدم جرعة حلوة ....
إذا لم يكن لديك مكيال
فسيسرقك الناس سريعا
ستأخذ عملة مزورة
ظنا بأنها حقيقية ...
لا تملأ طاسك بالطعام
من كل قدر يغلي
فليست كل نكتة مضحكة
لذلك لا تبحث عن المعنى
حينما لا يكون هناك شيء
فليست كل عين ترى
ولا كل بحر مليء باللآلئ ....
قلبي يغني أغنية الشوق كالعندليب
وصدى صوتك يبعث السحر
في كل حجر وفي كل شوكة
ليهجع رأسك أولا
ومرة بعد أخرى
ليذهب كل اضطرابك
اعتنق الضوء ودعه يقودك
وهناك ....خلف رياح الشوق
ستجد الربيع يقتات بمياه رؤيته
وستحمل الثمار كالشجرة
إلى الأبد .....

اللص في الليل

فجأة .....
(وعلى غير ما هو متوقع)
وصل الضيف ....
القلب يضطرب
من هناك ؟
وأجابت الروح :
انه القمر ....
جاء إلى البيت
ونحن مجذوبون
فركضنا إلى الطريق
نحدق بأنظارنا عاليا نحو القمر...
ثم في داخل البيت صاح : هاأنذا ...
وخلف الصدى
درنا حوله ودعوناه وبكينا لأجله
وتحلّقنا نائحين ...
للعندليب الثمل في حديقتنا ...
وبينما نحن نندب طوق الحمامة
غمغم نائحا (إلى أين ؟ ..إلى أين ؟)
كما لو أن عند منتصف الليل
تسمرَ النائمون في فراشهم
لسماع لص يقتحم البيت في الظلام
وهم يتعثرون صارخين
النجدة.....لص! ...لص!
لكن اللص في ارتباكه يصرخ معهم
لص!
إلى أن تذوب صرخته في صرخة الآخرين
(وهو معكم)
معكم عندما تريدون البحث عنه فابحثوا....
في نظراتكم
هو أقرب إليكم من أنفسكم إلى أنفسكم
لماذا تركضون خارجا
وتذوبون كالثلج ؟
طهروا أنفسكم بأنفسكم
حثوها بالحب ...
فستبرعم الألسنة من الروح
كما تبرعم الأسدية من الزنبق .